

العقل في خدمة النص

الحمد لله الذي ميز الإنسان بالعقل وكرمه، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [1]

كرمه بالعقل والتمييز، فهو يعرف بفطرته ما يضره مما ينفعه، وما يرضي الله مما يعضبه كما قال النبي ﷺ: عن وابصة بن معبد^٢ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: " جئت تسأل عن البرِّ والإثم؟ قال: نعم، فقال: استفت قلبك: البرُّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك "

وأصلي وأسلم على سيدنا رسول الله وبعده؛

فحديثنا عن العقل في فهم النص، خصوصا ونحن نعيش في زمن اختلط به الحابل بالنابل وكثرت فيه أصوات الذين يفتون بغير علم فضلوا واضلوا ...

أولاً: العقل: لغة واصطلاحاً.

ضدَّ الجُهْلَ عقلٌ يعقل عقلاً. وعقلُ القليل، إذا أعطيته ديتَه، أعقله عقلاً. وعقلت عن فلان، إذا أعطيت عنه دية قتييل أو أرش جنابة. وعاقلة الرجل: بنو عمه الأذنون. وعقل الدواء بطنه يعقله عقلاً، إذا أمسكه.^٣

العاقل من اتقى ربه وحاسب نفسه. وقيل: إذا اجتمع للرجل العلم والعمل والأدب يسمى عاقلاً، وإذا علم ولم يعمل، أو عمل بغير أدب، أو عمل بأدب ولم يعلم لم يكن عاقلاً".

^١ الإسراء: ٧٠

^٢ وابصة بن معبد بن الحارث بن مالك بن الحارث بن قيس بن كعب بن سعد بن الحارث بن ثعلبة بن بني أسد ت (٨٩هـ) من الذين أسلموا وحسن إسلامهم، ومن الرهط وفدوا على سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك في سنة تسع من الهجرة المباركة، للمزيد انظر الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، المحقق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م، ج٦، ص١٥٦

^٣ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٩٣٩

العقل حاكم: قال أهل العلم: إن العقل حاكم، وأنه ضروري لفهم النص، إذ أنه لا تكليف على مجنون، أو غائب العقل بأي أمر من الأمور، أو النائم، أو عدم المميز.

ولذا في التنزيل يقول الحق سبحانه:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٤] ... أي ما يفهم ما يضربه الله من أمثال من البعوض، والذباب، والعنكبوت، والنحل، والنمل، وغيرها من الأمثلة، التي ساقاها الحق سبحانه، إلا الراسخون في العلم، والقرآن مليء بالأمثال، ولكن تلك الأمثال تحتاج لذوي الألباب والعقول. فالعقل إذا هو مربوط الفرس، وجوهر القضية، وبيت الصيد، ولذلك وردت مادة عقل في القرآن في أكثر من أربعين آية انظر معي وتدبر

١. قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٥] ، وكأن من يأمر بمعروف ولا يأتيه وينهى عن منكر ويأتيه لا عقل له، كالدابة، والقرآن يتحدث عن نفر من اليهود، يهرفون بما لا يعرفون، ويلوون ألسنتهم بالكتاب ليشتروا به ثمنا قليلا فيقول عنهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [٦]

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] .. أي أن التدبر والتفكير صفة من صفات العلماء

٣- ولما وصف أهل الكفر والضلال قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٧] ... لا يعقلون لفقدانهم الحواس الثلاثة، فقد أنزل

٤ العنكبوت: ٤٣

٥ البقرة: ٤٤

٦ الجمعة: ٥

٧ البقرة: ١٧١

سبحانه المعني منزل الحس، فلما صموا اذانهم عن الحق ولم ينطقوا به؛ رغم معرفتهم له، وعموا عنه، صورهم القرآن تصويراً حسياً، فمثلهم كمثل البهائم، فراعي الغنم ينق فيهما ويعلو بصوته ولكنها لا تفهم ولا تعقل!^٨

٤- بين الحق أن القلب موطن العقل حيث قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ

بِهَا﴾ [٩] يعلق الماوردي على تلك الآية بقوله: "فدلت هذه الآية على أمرين:

أحدهما: أن العقل علم، والثاني: أن محله القلب. وفي قوله تعالى: {يعقلون بها} [الحج: ٤٦]، تأويلان: أحدهما: يعلمون بها، والثاني يعتبرون بها. فهذه جملة القول في العقل الغريزي. وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة. وليس لهذا حد؛ لأنه ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل. ونماؤه يكون بأحد وجهين: إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد من شهوة، كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الأمور. ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم: المشايخ أشجار الوقار، ومناجع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم، إن رأوك في قبيح صدوك، وإن أبصروك على جميل أمدوك.^{١٠}

٥- بيان أن سبب هلاك أهل النار عدم ادركهم واصرارهم على الكبر والضلال قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١١]

العقل ضروري لفهم النص:

إن الله لما خلق الخلق، جعلهم طبقات ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وفضل بعضهم علي بعض، بالعلم والحكمة، والعقل وحسن الإدراك والرسوخ في العلم قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٢] وبتلك الحكمة فضل الأنبياء وورثتهم من العلماء

^٨ تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١ هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ج٢، ص٤٦

^٩ الحج: ٤٦

^{١٠} أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، دار مكتبة الحياة

١٩٨٦ م، ص٢٠

١٠ الملك: ١٠

^{١٢} البقرة: ٢٦٩

فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَعَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴿١٤﴾ [١٣] وعليه فنصر داود من خلال علمه وحكمته وخبرته وأن العلم أهم ركن من أركان فهم النص والتشريع والفوز والنصر .

وبين سبحانه أن النصوص فيها الجمل والمقيد والخاص والعام، والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ والمفصل وكثيرا منها يحتاج لفهم والمأم بالعلوم والفنون والمعارف، وأن هناك من النصوص لا يقرأ كوحدة مستقلة، بل لا بد من فهم معانيه، ومفرداته ، وألفاظه، وفقه لغته، كما وضح ربنا سبحانه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿١٤﴾ [١٤]

فمنهم من قرأ بعطف الراسخون بالعلم، على الله سبحانه، على اعتبار أن العلماء الراسخون؛ هم من يعرفون مراد الله، على وفق هدي من الله، فتلك هي الحكمة وهدى الله الذي يمن به على من يشاء من عباده. ١٥

فالعقل خادم للنص، مفسرا له بحسب قواعد ومناهج البحث العلمي، كل في بابهِ وفنهِ.

ولذا قال النبي ﷺ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ.. ١٦

فالاتجاه أصل من أصول الدين وفي الحديث، ومن ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه على اليمن كَيْفَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ " قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ. قَالَ: " فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ " قَالَ: فَيَسْتَنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: " فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ؟ " قَالَ: أَجْتَهُدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو. قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرِي، فَقَالَ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا يُرْضِي رَسُولَهُ " ١٧

١٣ البقرة: ٢٥٠-٢٥١

١٤ آل عمران: ٧

١٥ إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م، ج١، ص١٤٤.

١٦ صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - ﷺ - وسننه وأيامه)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، دار التأسيس - القاهرة، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م، ج١، ص٢٤٦، رقم الحديث ٧٢.

١٧ مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ)، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م، ج٣٦، ص٤١٧، رقم الحديث ٢٢١٠١

فحكم معاذ بكتاب الله بفهم وعقل وتدبر، وكذا فهمه للسنة بفهم وعقل وتدبر، ثم حدد له النبي صلى عليه وسلم الحد الثالث من حدود التشريع، والحديث وإن ضعفه بعضهم لعله في سنده لكنه صحيح المعنى، يستقيم مع مقاصد الشرع، وقد روي كذلك عن ابن سيرين قال: **لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ ﷺ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ نَزَلَتْ بِهِ قَضِيَّةٌ فَلَمْ يَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْهَا أَصْلًا وَلَا فِي السُّنَّةِ أَثْرًا فَاجْتَهَدَ رَأْيَهُ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا رَأْيِي فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»**^{١٨}

الليث والرشيدي:

جری بین ہارون الرشید و بین بنت عمہ زبیدہ بنت جعفر کلام، فقال ہارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا، ثم كتب إلى البلدان، فاستحضر علماءها إليه، فلما اجتمعوا؛ جلس لهم، فسألهم فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم وكان في آخر المجلس (الليث بن سعد) ، قال: فسأله فقال: إذا خلا أمير المؤمنين في مجلسه كلمته؛ فصرفهم فقال: يدنيني أمير المؤمنين فأدناه فقال: تكلم على الأمان، فقال نعم، فأمر بإحضار مصحف، فأحضره، فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن، فاقراها، ففعل، فلما انتهى إلى قوله تعالى: **ولن خاف مقام ربه جنتان**، قال أمسك يا أمير المؤمنين، قل والله، قال فاشتد ذلك على هارون، فقال يا أمير المؤمنين الشرط أملك فقال والله حتى فرغا من اليمين، قال: قل إني أخاف مقام ربي، فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين هي جنتان، وليس بجنة واحدة، قال فسمعت التصفيق والفرح من وراء الستر، فقال له الرشيد: أحسنت والله، وأمر له بالجوائز والخلع.^{١٩}

وعندنا العديد من المسائل التي تبين ذلك الأمر وتوضحه:

^{١٨} جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي - السعودية ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ج٢، ص٨٣٠، رقم الحديث ١٥٥٤
^{١٩} شرح الشفاء، للفاضل عياض، الملا علي القاري الهروي الحنفي (ت ١٠١٤ هـ) تحقيق، عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج١، ص٣٢٠

١- منها مثلاً صلاة الجمعة النص القرآني يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ

فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [٢٠] فالنص هنا عام، ولم يأتي نص آخر يفسره، فكيف تنعقد الجمعة؟

ذكر الجويني: " فمذهب الشافعي أن الجمعة لا تنعقد إلا بأربعين. وقد اختلف مذاهبُ السلف في ذلك، وحكى صاحب التلخيص قولاً عن القديم أن الجمعة تصح ابتداءً من ثلاثة، والإمام ثالثهم، وقد بحث الأئمة عن كتب الشافعي في القديم، فلم يجدوا هذا القول أصلاً، فردّوه. ومعتمد الشافعي في هذا العدد ما روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: "مضت السنة أن في كل أربعين، فما فوق جمعة"، واستأنس الشافعي بمذهب عمر بن عبد العزيز ثم قاعدة الشافعي في مسائل الجمعة تدور على شيء، وهو أن صلاة الجمعة مغيرة مخالفة للظهر في سائر الأيام، وهي على صورة صلاة ظهر مقصورة في الإقامة، وقد تمهد في الشرع أنه يُراعى كمالاً في الموضوع من المقيمين، واجتماع شرائط، فالأصل إتمام الصلاة، إلا أن يثبت ثبوت. والجمعة أيضاً جمع الجماعات، ولذلك لا تقام في وقتها جماعة أخرى، فلا بدّ من اعتقاد كثرة، ثم إذا وجدنا مستمسكاً في التقدير ابتدرناه وإذا بعد الاكتفاء بأقل جماعة وأدنى جماعة، ولم يشترط أحدٌ أكثر من الأربعين، وانضم إليه اعتبار الأقصى، والاحتياط، كان ما ذكره الشافعي غاية الإمكان في ذلك.^{٢١}

وعليه يمكن القول إن النص لا يفهم وحده، لكن لا بد من إعمال العقل، بضوابطه وشروطه، وأن الله سبحانه خلق العقل، وركبه في الإنسان، وميزه بالعقل عن سائر خلقه، للتفكير والتدبر، ولا سبيل لمعرفة الله إلا من خلال النص، والنص يحتاج لعقل، ولا سبيل ولا سلطان على العقل إلا بالعلم، والعلم بالتواتر، على أيد العلماء، كل في تخصصه، لذا حرص الأزهر الشريف منذ أقدم العصور، ومذ أعيد بعثة مرة أخرى، في العصر المملوكي، على الجمع بين العلوم، فاشترط على طالب العلم في الحديث أو الفقه أو غيرها، أن يكون ملماً باللغة، والقراءات، والتفسير، والمصطلح والتاريخ، والمنطق، والعقيدة، وغيرها حتى يتمكن من فهم النصوص وهضمها، وكانت رسالة الأزهر ولا تزال، إعلاء قيمة العقل، واحترام الإنسان، صنع الله، وإعلاء شأنه عن سائر الخلق، بالعلم والعقل، والتفكير والتدبر، بالأمر في السير والسعي، والنظر في السماء والأرض والجبال، وخلقته وتكوينه، ومن ثم الوصول إلى رب العالمين سبحانه، وقدره حق قدره، وعبادته حق العبادة.

^{٢٠} الجمعة: ٩

^{٢١} نهاية المطلب في دراية المذهب، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ)، حققه عبد العظيم محمود الديب، دار المنهاج، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٤٨١

